

علم الاجتماع في الوطن العربي:

1- السوسيولوجيا علم "أيديولوجي" ، يصعب فصل نشأته وتطوره عن المناخ السياسي والثقافي العام المرتبط بمجمل التطور الاجتماعي البشري . وبالنسبة للوطن العربي ، فإن هذا المناخ ، قد شهد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بروز أربعة تيارات سياسية — إجتماعية كبرى هي : التيار الليبرالي ، التيار الديني الإسلامي ، والتيار القومي العربي ، والتيار الماركسي اللينيني . ولكن هذه التيارات الرئسية الأربعة ، أخذت بعد هزيمة حرب 1967 بين العرب وإسرائيل ، ولأ سباب متعددة ومختلفة ، تنف سم على نف سها ، إلى أجنحة وتيارات فرعية ، بع ضها وقف إلى جانب السلطات القائمة (بما في ذلك السلطات المهزومة في الحرب) ، وبع ضها ضدها ، وقد انعكس كل ذلك على نشأة وتطور السوسيولوجيا في الوطن العربي ، كما سنرى لاحقاً.

2- تختلف نشأة السوسيولوجيا في الوطن العربي ، من جهة بين المشرق والمغرب العربيين ، ومن جهة ثانية ، بين قطر عربي وآخر . ففي المشرق العربي (حسب علي أومليل) " نقل هذا الدرس أساساً طلاب ذهبوا لتحضير رسائل في الجامعات الأوروبية والفرنسية خاصة ، ثم فيما بعد في الجامعات الأمريكية ، وعاد هؤلاء ليذيعوا ماتعلموه ، انطلاقاً من الجامعة المصرية ... أما في بلدان المغرب العربي ، فإن دخول الأبحاث .. قد بدأت كما ستكشافات للتعرف على البلاد تمهيداً للغزو الاستعماري لها .. وهكذا تكون ركام ضخمة من تقارير استكشافات ، ومنوغرافات .. وكذلك العديد من الأبحاث عن القبائل والمدن والزوايا الملتزم أغلبه بإنجاح عملية استتباع البلاد وإدماجها بالنظام الاستعماري. "

3- لقد دخلت السوسيولوجيا الجامعات العربية ، أولاً كمادة دراسية في إطار المواد الأساسية لقسمة الفلسفة ، ثم بدأت تتحول تدريجياً إلى قسم مستقل . وتعتبر جامعة القاهرة أول جامعة عربية تحولت فيها السوسيولوجيا إلى قسم مستقل عام 1947 ، بينما تأخرت جامعة دمشق إلى 1976 ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى 1978 م وما تزال السوسيولوجيا تدرس في العديد من الجامعات العربية في إطار العلوم الاجتماعية الأخرى أو الفلسفة.

4- تنطبق مسألة تبعية الوطن العربي الثقافية العامة للدول الصناعية المتطورة ، بصورة أساسية على السوسيولوجيا التي نشأت في أحضان الثورة الصناعية في أوروبا وأمريكا . ولم يكن الرواد العرب الأوائل من السوسيولوجيين سوى ممثلين لهذه المدرسة أو تلك من المدارس السوسيولوجية الأوروبية . فلقد كتب نقولا حداد عام 1924 أول كتاب عربي يحمل اسم " علم الاجتماع " ، وكان واقعاً بصورة خاصة ، تحت تأثير هيربرت سبنسر ، ونظرية التطور الداروينية ، وحاول كل من عبد الواحد وافي ، وعبد العزيز عزت ، وحسن سعيان شحادة ، إلباس ابن خلدون قبعة أوغست كونت ، ولم يكن عبد الكريم اليافي أكثر من ناقل لنظريات دوركهايم السوسيولوجية إلى اللغة العربية ، وبصورة عامة فإن مؤلفات ، وترجمات خريجي جامعات أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ، التي كانت تهيمن على المناخ الأكاديمي العربي ، قد جعلت السوسيولوجيا في الوطن العربي ، وحتى وقت قريب ، اسيرة الوضعية الفرزسية ، والإمبريقية الأمريكية ، والاتجاه البنائي الوظيفي (أنظر: عبد الباسط عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، الكويت 1981) . هذا وقد وضع كثير من السوسيولوجيين العرب ، إمكانياتهم ومعارفهم العلمية ، في خدمة الأنظمة التي يعيشون في ظلها وحولوا السوسيولوجيا إلى علم رسمي تبريري ، وأغرقوا طلبتهم في بحوث إمبريقية جزئية بعيداً عن الحاجات الفعلية للجماهير الشعبية التي تحكمها هذه الأنظمة.

5- بعد فشل عقدي الأمم المتحدة الأول 1960 — 1970 ، والثاني من 1970 — 1980 ، في تضيق المسافة الإقتصادية والاجتماعية بين الدول المتطورة ، والأخرى ناقصة التطور (ومنها الوطن العربي) بدأت أعين السوسيولوجيين العرب تتفتح على عيوب النظريات التي تدخل في إطار " علم اجتماع التنمية Sociology of Development " وبالتالي ، تم وضع هذه النظريات على محك النقد العلمي ، ولكن من منظور أبناء العالم الثالث أنفسهم هذه المرة حيث اخذت تتزاحم على هذا المحك النقدي ، تيارات سوسيولوجية أربع ، تمثل التيارات السياسية التي سبق أن أشرنا إليها في الفقرة الأولى أعلاه ، ألا وهي: التيار الليبرالي ، التيار الإسلامي ، والتيار القومي ، والتيار الماركسي — اللينيني . وبدأنا نرى في المكتبات العربية كتباً تحمل أسماء : علم

الإجتماع الإسلامي ، علم الإجتماع البرجوازي ، علم الإجتماع الماركسي، وكانت تنطوي على وجهات نظر متباينة حول قضايا التخلف والتبعية والتنمية.

6- في دراسة ميدانية قام بها الدكتور طاهر لبيب ، الأمين العام للجمعية العربية لعلم الإجتماع حول المؤلفين والمؤلفات المقترحة على طلبة السوسولوجيا في ثمانينات القرن الماضي، تبين (وبكلمات الباحث نفسه:)

— أن سمير أمين هو المرجع الأول في تدريس علم الإجتماع ،

— أن ابن خلدون والمغرب العربي مقولتان متلازمتان ، يفضي كل منهما إلى الآخر ،
— يمثل كارل ماركس المرجع الخفي ، الذي لا يوجد — — عموماً — — رجوع مباشر إليه ،
وإنما عبر قراءات ماركسية ، من نوع قراءات : ألتوسر Alltusser ، غرامشي A.Gramsci ،
سمير أمين ، عبد الله العروي،

— — ينتمي كل من سمير أمين وماكس فيبر وابن خلدون وعبد الله العروي إلى النواة الأساسية
لـ—————ال—————
السوسولوجية التي مصدرها التدريس في الجامعة التونسية.

إن دراسة الدكتور الطاهر لبيب ، تعكس واقع الحال واحداً من الاتجاهات السوسولوجية الأربعة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، ألا وهو الاتجاه الماركسي اللينيني ، وهو لا يمثل واقعياً سوى جانب واحد من الواقع السوسولوجي في جامعات الوطن العربي ، الذي سبق أن أشرنا إليه.

7-تنطوي الترجمة العربية لكلمة Sociologie الكومتية بـ " علم الإجتماع " ،على نوع من الإلتباس والازدواجية ويعود هذا الإلتباس إلى أن الظواهر الإجتماعية نفسها ، إنما تنطوي على بعدين اثنين : بعد " عام " يشير مفهوم " إجتماعي " بالمعنى الواسع الذي يشمل البعد السياسي والثقافي والاقتصادي والسوسولوجي ، وبعد " خاص " يشير إلى مفهوم إجتماعي بالمعنى المحدود والضيق ، الذي ينحصر بالعلاقات الإجتماعية بين الأفراد والمجموعات كما أنه من الناحية اللغوية ، فإن تعبير " علم إجتماع " يمثل المفرد الذي جمعه " العلوم الإجتماعية " ، وبالتالي يمكن إطلاق

تسمية " علم إجتماع " على كل من علوم السياسة والاقتصاد والتاريخ.. الخ بسبب انضوائها جميعاً تحت مفهوم / تسمية العلوم الاجتماعية.

وخروجاً من هذه الإشكالية نقترح على الزملاء في علم الاجتماع ، أن يستخدموا إما المصطلح الكومتي المعتمد في كل لغات العالم (Sociologie) ، أو المصطلح الخلدوني العربي (علم العمران) . هذا مع العلم أن مصطلح " علم الإجتماع " يمكن أن يتحول مع الزمن إلى مصطلح مكتف ذاتياً ، ويصبح مرادفاً لمصطلح السوسيولوجيا ، أو علم العمران ، أي ليس كمفرد لجمع (العلوم الاجتماعية) ، وبالتالي فإن استخدامه يمكن أن يظل صحيحاً ومشروعاً.

8- تعني التنمية بصورة عامة:

_____ تنمية الوعي السياسي (الفردى والجماعى) ، تنمية الممارسة الديمقراطية ، تنمية الإنتاج المادى والمعنوى.

ويمثل العنصر الأول برأينا الشرط المسبق لتنمية كل من الديمقراطية والإنتاج المادى والمعنوى . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : " من سينمى من ؟ وكيف؟" . وفى محاولة الإجابة على هذا السؤال الإشكالى ، لابد من التوقف عند المسائل السوسيولوجية التالية:

1. 8 ، إن تغييب الدور السياسى للجماهير العربية من قبل السلطات الحاكمة ، كان وما يزال ، السبب والنتيجة معاً لتخلف الوعي السياسى والاجتماعى لدى هذه الجماهير ،
2. 8 ، إنه إضافة إلى السلطات الحاكمة ، المرتبط معظمها بالدول الرأسمالية الكبرى ، المعروفة الأهداف والنوايا ، فإن شرائح كثيرة وكبيرة من المثقفين (الأفنديين) غير العضوين ، بمن فيهم قسم من المشتغلين بعلم الاجتماع ، وقسم من رجال الدين ، وقسم من العسكريين ، قد وضعوا معارفهم النظرية والتطبيقية فى خدمة "السلطان" والدولار ، بحيث لم يعد المرء قادراً على التفريق بين اليمين واليسار فيهم
3. 8 ، يتميز التركيب الاجتماعى فى الوطن العربى بالتداخل والتشابك بين الإنقسامين : العمودى (الإثنى ، الدينى ، الطائفى ، القبلى الجهوى) ، والأفقى (الاقتصادى والطبقى) ، الأمر الذى